Journal Of the Iraqia University (75-8) May (2026)

ISSN(Print): 1813-4521 OnLine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at: https://www.mabdaa.edu.iq

قراءة تداولية في رواية لا تركضي وراء الذئاب يا عزيزتي للروائي العراقي علي بدر
دراسة في الأفعال الكلامية والاستلزام الحواري والإشاريات

الدكتور أيوب عمر علي

قسم اللغة العربية كلية التربية الأساسية جامعة صلاح الدين أربيل

Ayub.ali@su.edu.krd

A Pragmatic Reading of the Novel "Don't Run After Wolves, My Dear" by the Iraqi Novelist Ali Badr
A Study of Speech Acts, Conversational Implicature, and Deixis

Dr. Ayub Omar Ali

Department of Arabic Language – College of Basic Education – Salahaddin University – Erbil

Email: Ayub.ali@su.edu.krd

ملخص البحث

يحاول هذا البحث أن يقدم قراءة تداولية لرواية ((لا تركضي وراء الذئاب يا عزيزتي)) للروائي العراقي علي بدر الصادرة عن دار الرافدين سنة ٢٠١٧، انطلاقا من تصور يرى أن اللغة الروائية ليست انعكاسا وصفيا محايدا للواقع، وإنما هي ممارسة تواصلية تنجز في سياق مقامي بعينه، يتشابك فيه الذاتي بالمؤسسي، والمحلي بالكوني. وتتجه الدراسة إلى تفكيك بنية الخطاب الحواري في الرواية معتمدة ثلاث ركائز منهجية متعاضدة، هي : نظرية الأفعال الكلامية بصياغتيها عند أوستن وسيرل، ومبدأ التعاون والاستلزام الحواري عند غرايس، ونظرية الإشاريات في صورتها التي بلورها ليفنسون ولاينز .وتنتهي الدراسة إلى أن الخطاب الروائي في النص المدروس يؤسس ما يمكن أن نصطلح عليه بـ ((سردية الإخفاق التداولي))، إذ تتراكم فيه ظواهر خرق مبادئ غرايس، وتعطل الأفعال الإنجازية، واضطراب مرجعيات الإشاريات، وذلك بوصفها انعكاسا لتشظي الذات المهاجرة بين هنا بروكسل وهناك بغداد. ويتضح فضلا عن ذلك أن علي بدر يستثمر السخرية والإبهام بوصفهما خطتين تداوليتين ذواتي طابع احتجاجي، وأن المضمر والمسكوت عنه يهيمنان على المنطوق فيعيدان تشكيله دلاليا. وقد اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي، مع الإفادة من بعض إجراءات التحليل البنيوي في عزل الوحدات الحوارية وتصنيفها. الكلمات المفتاحية

التداولية – الأفعال الكلامية – الاستلزام الحواري – الإشاريات – الخطاب الروائي .

Abstract

This paper attempts a pragmatic reading of Ali Badr's novel Don't Run After Wolves, My Dear (Beirut : Dar Al-Rafidain, 2017), departing from the assumption that the language of fiction is not a neutral descriptive mirror but a situated communicative practice in which the personal intersects with the institutional, and the local with the global. Drawing on three converging frameworks – speech-act theory as outlined by Austin and refined by Searle, Grice's cooperative principle and theory of conversational implicature, and Levinson's typology of deixis – the analysis demonstrates that the novel functions as a sustained narrative of pragmatic failure : Gricean maxims are systematically flouted, illocutionary acts repeatedly misfire, and personal, spatial and temporal deictics expose the existential displacement of an Iraqi exile suspended between Brussels and Baghdad. Irony and intentional vagueness emerge as protest-oriented pragmatic strategies, while the implicit and the unsaid override the explicit and reorganise its meaning. Methodologically, the research adopts a descriptive-analytical approach complemented by selective structural procedures for segmenting and classifying conversational units.
Keywords: Pragmatics - Speech Acts - Conversational Implicature – Deictics .

شرح للمصطلحات المفتاحية

– التداولية (Pragmatics) : حقل معاصر من حقول الدرس اللساني، ينظر إلى اللغة وهي قيد الاستعمال، ويتأمل الصلة الجامعة بين العلامة اللغوية ومستعمليها وسياق تلفظها، متجاوزا المعنى المعجمي إلى المعنى المقصود في فعل التواصل.

– الأفعال الكلامية (Speech Acts) : نظرية ذات طابع لساني فلسفي، أرسى أوستن قواعدها ودفع بها سيرل خطوة أبعد، وتنطلق من أن التلفظ بالعبارة إنجاز لفعل في العالم، وعدا كان أو أمرا أو تحذيرا أو إخبارا، لا مجرد وصف لواقعة خارجية.

– الاستلزام الحواري (Conversational Implicature) : مفهوم غرايسي يحيل على المعنى الزائد الذي يستخلصه السامع من القول دون أن يصرح به المتكلم، ويتولد في الغالب من الخرق المقصود لإحدى مقتضيات التعاون أو لأكثر منها.

– الإشاريات (Deictics) : وحدات لغوية لا يتحدد مرجعها إلا بمعرفة سياق التلفظ، ومنها : الضمائر، وأسماء الإشارة، وظروف الزمان والمكان، وعبارات المخاطبة الاجتماعية.

المقدمة

فإن اللغة في المنجز الروائي للكاتب العراقي علي بدر تتعدى وظيفتها بوصفها أداة للوصف السردي لتغدو فعلا اجتماعيا وتواصليا مركبا، يكشف عن طبيعة العلاقات بين الذوات المتحاورة، ويفصح عما يستتر في طبقات الخطاب من مسكوت عنه. وفي روايته ((لا تركضي وراء الذئاب يا عزيزتي))، الصادرة عن دار الرافدين في بيروت سنة ٢٠١٧، يبرز الخطاب الروائي ساحة مفتوحة تتصارع فيها الهويات المأزومة في مدن المنفى الأوروبية، وعلى رأسها بروكسل، حيث يتلاقى الشرقي بالغربي، والمحلي بالكوني، والذاكرة بالحاضر، دون أن تتحقق بينهما المصالحة المنشودة.

ولما كان المنهج البنيوي الكلاسيكي قد جرد النص من سياقه الإنساني والاجتماعي، فقد بدا اللجوء إلى مناهج لسانية حديثة ضرورة منهجية لاستعادة حياة النص التواصلية. ومن أبرز هذه المناهج المنهج التداولي، الذي لا يقف عند حدود المعنى المعجمي للمفردات، بل ينفذ إلى المعنى المقصود وعلاقة المتكلم بالمخاطب، ويعد القول فعلا منجزا في العالم لا مجرد عبارة وصفية محايدة (يول، ٢٠١٧، ص ١٨).

أولا : إشكالية البحث

تتمحور إشكالية البحث حول السؤال الجوهري الآتي : كيف تتشكل المقاصد اللغوية، وتتحقق الأفعال الكلامية في ظل صراع الهويات داخل رواية ((لا تركضي وراء الذئاب يا عزيزتي)) ؟ وتتفرع من هذه الإشكالية الكبرى أسئلة أخرى أبرزها :

١ – ما طبيعة الأفعال الكلامية التي توظفها شخصيات الرواية في حواراتها داخل فضاء المنفى ؟ وما القوى الإنجازية التي تتحكم فيها ؟

٢ – كيف تخرق هذه الشخصيات مقتضيات التعاون التي اقترحها بول غرايس ؟ وما الدلالات النفسية والثقافية لهذا الخرق ؟

٣ – كيف تنهض الإشاريات المكانية والزمانية والشخصية بمهمة تجسيد التمزق الهوياتي للبطل المهاجر ؟

٤ – هل أفلحت اللغة في ردم الهوة بين الشرق والغرب في هذه الرواية، أم أنها تحولت إلى أداة لترسيخ الاغتراب وتعميقه ؟

ثانيا : أهمية الدراسة وأسباب اختيارها

تستمد هذه الدراسة أهميتها من جوانب عدة، لعل أبرزها أنها تسلط الضوء على رواية حديثة لروائي يعد من أبرز أصوات الجيل العراقي الجديد، وتقاربها من زاوية لسانية تطبيقية لم تستثمر بالقدر الكافي في الدرس النقدي العربي. ومن جهة ثانية، تسهم الدراسة في تجسير الفجوة القائمة بين الدراسات النظرية في اللسانيات التداولية، والتطبيق على النصوص السردية العربية المعاصرة، وبخاصة تلك المعنية بقضيتي المنفى والاغتراب الثقافي. أما أسباب الاختيار فترجع إلى الحاجة الماسة إلى قراءة أدب المهجر العراقي الجديد بأدوات نقدية مغايرة، تكشف ما لا تكشفه القراءات الموضوعاتية والأيديولوجية التقليدية (بنشويخ، ٢٠١٤، ص ٦٠).

ثالثا : منهج الدراسة

اقتضت طبيعة الموضوع اعتماد المنهج التداولي أداة رئيسة للتحليل، مع الإفادة من بعض إجراءات المنهج البنيوي السردي في تفكيك الحوارات وعزل وحداتها التواصلية. واتكأت الدراسة، على وجه التحديد، على نظرية الأفعال الكلامية لجون أوستن وما طوره فيها جون سيرل، وعلى نظرية مبدأ التعاون والاستلزام الحواري لبول غرايس، فضلا عن نظرية الإشاريات بصياغتيها عند ستيفن ليفنسون وجون لاينز (ليفنسون، ١٩٨٣، ص ٥٤).

رابعا : خطة البحث

اقتضت طبيعة الدراسة تقسيمها إلى مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، تليها قائمة بالمصادر والمراجع. تناول التمهيد الإطار النظري للتداولية، ولمحة عن المشروع الروائي لعلي بدر. وخصص المبحث الأول لدراسة الأفعال الكلامية في الخطاب الروائي، وتفرع إلى ثلاثة مطالب. أما المبحث الثاني فدار حول الاستلزام الحواري ومبدأ التعاون عند غرايس، في حين عالج المبحث الثالث السياق الإشاري والمقامي في ثلاثة مطالب. ثم جاءت الخاتمة بأبرز النتائج، تلتها قائمة المصادر والمراجع.

التمهيد في رحاب التداولية والرواية

أولا : مفهوم التداولية لغة واصطلاحا

التداولية في أصلها اللغوي مأخوذة من المادة (د و ل)، يقال : تداول القوم الشيء بينهم، أي تناقلوه. ودل المعنى المعجمي بذلك على فكرتي التبادل والتناوب. أما الدلالة الاصطلاحية فقد تعددت فيها التعريفات بتعدد مدارس التداوليين، غير أنها تجتمع في مجملها على فكرة ناظمة مفادها أن التداولية معنية بدراسة اللغة في حال استعمالها، لا في حال تجريدها.ويعرف يول التداولية بأنها دراسة للمعنى الذي يقصده المتكلم لا للمعنى الحرفي، وهو تعريف يشدد على القصدية بوصفها جوهر العملية التداولية (يول، ٢٠١٧، ص ١٨). ويذهب صحراوي إلى أنها ميدان لساني جديد يدرس صلة العلامات اللغوية بمستعمليها، ويعنى بسياق الكلام بدلا من الاكتفاء ببنيته الداخلية (صحراوي، ٢٠٠٥، ص ٢٨). ويختصر نحلة هذا الموقف بقوله إن التداولية هي ((علم استعمال اللغة))، أي إنها تنزع عن اللغة طابعها الستاتيكي الذي حصرها فيه دي سوسير، وتعيدها إلى ميدان الفعل والممارسة (نحلة، ٢٠٠٢، ص ١١).ويقدم المصباح تعريفا أكثر شمولا يربط التداولية بأركانها التحليلية، إذ يصفها بأنها الدراسة التي تعنى بالعلاقة بين العلامات ومستعمليها، عن طريق رصد الأفعال الكلامية، والاستلزامات الحوارية، والإشاريات، والافتراضات المسبقة (المصباح، ٢٠٠٦، ص ١٩). وقد ألمح طه عبد الرحمن إلى الجذور التراثية لهذه المباحث في الدرس البلاغي والأصولي العربي، إذ تحدث الأصوليون عن ((مقتضى الحال))، و((مقام الخطاب))، و((قصد المتكلم))، وهي مفاهيم تتقاطع جوهريا مع المفاهيم التداولية الحديثة (عبد الرحمن، ١٩٩٨، ص ٣٥).

ثانيا : أبرز آليات التحليل التداولي

تنهض التداولية على جملة من الآليات والركائز التحليلية، يمكن إجمالها في الآتي :

١ – نظرية الأفعال الكلامية : وضع لبناتها الأولى الفيلسوف البريطاني جون لانغشو أوستن في كتابه الذائع الصيت ((كيف ننجز الأشياء بالكلمات))، إذ ميز فيه بين الفعل القولي، والفعل المتضمن في القول، والفعل التأثيري الناتج عن القول (أوستن، ١٩٩١، ص ٢٢). وقد طور تلميذه جون سيرل هذه النظرية وقدم تصنيفا خماسيا للأفعال الإنجازية يضم : الإخباريات، والتوجيهيات، والإلزاميات، والتعبيريات، والإعلانيات (سيرل، ١٩٨٧، ص ١٢).

٢ – مبدأ التعاون والاستلزام الحواري : أرسى دعائمه الفيلسوف الأمريكي بول غرايس سنة ١٩٧٥، حين افترض أن المتحاورين يلتزمان ضمنا بأربع مقتضيات هي : مقتضى الكم، ومقتضى الكيف، ومقتضى العلاقة، ومقتضى الطريقة. وحين يخرق المتكلم إحدى هذه المقتضيات خرقا ظاهرا، فإنه يولد لدى السامع ما اصطلح عليه غرايس بالاستلزام الحواري (غرايس، ١٩٨٩، ص ٢٦).

٣ – نظرية الإشاريات: وتعنى بدراسة الكلمات التي لا يتحدد معناها إلا بمعرفة سياق التلفظ، وتنقسم إلى إشاريات شخصية كالضمائر، وإشاريات مكانية كظرفي ((هنا)) و((هناك))، وإشاريات زمنية كـ((الآن)) و((أمس))، وإشاريات اجتماعية، وأخرى خطابية (لاينز، ١٩٧٧، ص ٦٣٧).

٤ – نظرية الملاءمة : قدمها كل من دان سبيربر وديردري ويلسون بوصفها تطويرا معرفيا لمبدأ غرايس، وتقوم على أن كل تواصل يحمل افتراضا ضمنيا بأنه ملائم على النحو الأمثل (سبيربر وويلسون، ١٩٩٥، ص ١١٨).

٥ – الافتراض المسبق والمقام : يعد المقام عنصرا جوهريا في التحليل التداولي، إذ هو مجموع الظروف الزمانية والمكانية والاجتماعية والثقافية المحيطة بالحدث الكلامي، والمحددة لدلالته (أرمينكو، ١٩٨٦، ص ٣١).

ثالثا : لمحة عن المشروع الروائي لعلي بدر

يعد علي بدر، المولود في بغداد سنة ١٩٦٤، من أبرز الروائيين العراقيين والعرب في جيله، وله مكانة متميزة في المشهد الروائي العربي المعاصر، وهو من الكتاب الذين تتمحور تجربتهم الروائية حول ثيمات الهوية، والاغتراب، وصراع الشرق والغرب، ومأزق المثقف العربي بعد سقوط المشاريع الكبرى. وقد أصدر عشرات الروايات، من بينها : ((بابا سارتر))، و((حارس التبغ))، و((مصابيح أورشليم))، فضلا عن العمل الذي تتناوله هذه الدراسة (إبراهيم، ٢٠١٣، ص ٨٨).

ويمتاز الخطاب الروائي عند بدر بالسخرية المرة، والتناص الكثيف مع الفلسفة الغربية، والتفكيك الجريء للأيقونات الأيديولوجية الكبرى. ويرى الناقد فيصل دراج أن روايات علي بدر تشكل مرثية متواصلة لجيل المثقف العراقي الذي ولد على أنقاض الأحلام الكبرى، وانتهى منفيا في عواصم أوروبا الباردة (دراج، ٢٠٠٤، ص ٧٣). ويلتقط الروائي الحوارات بدقة فنان لساني يدرك أن الكلمة لا تنفصل عن السياق الذي تقال فيه، ولذلك تكثر في رواياته الحوارات الطويلة المتعددة الأصوات، حيث يتمظهر الصراع الأيديولوجي والثقافي عبر اللغة قبل أن يتمظهر عبر الأحداث.

رابعا : ملخص الرواية وسياقها السردي

تدور أحداث رواية ((لا تركضي وراء الذئاب يا عزيزتي)) في فضاء بروكسل، حيث يستقر بطل الرواية، الصحفي العراقي الذي يعمل في وكالة صحفية أجنبية يختصر اسمها في ((أم آي سي)). وتنطلق الحبكة من تكليفه بكتابة تقرير عن مجموعة من الثوار الماركسيين العراقيين، غادروا بغداد في سبعينيات القرن الماضي، والتحقوا بالثورات المناهضة للاستعمار في أفريقيا، ولا سيما في إثيوبيا. يقول السارد في فاتحة الرواية مكاشفا قارئه بطبيعة المهمة ((كانت وكالة الصحافة الأجنبية، التي يطلق عليها المثقفون والصحفيون ومقدمو البرامج والسياسيون هنا مختصر ((أم آي سي))، هي التي أوفدتني بمهمة سريعة إلى أديس أبابا. وهذه هي المرة الأولى التي أقوم فيها بعمل خارج الوكالة، فبعد عشرين عاما من العمل في الـ((أم آي سي)) لم أبارح مكاني مطلقا، حتى كدت أتعفن في أحد مبانيها)) (بدر، ٢٠١٧، ص ٧)هذا الافتتاح يضع المتلقي منذ السطور الأولى أمام بطل مأزوم تداوليا، فهو يعمل في وسط ثقافي مولع بالاختصارات والتصنيفات، وهو ما سيكشف لاحقا عن أزمة لغوية عميقة في علاقة الذات بالآخر. وتتشعب الرواية إلى مسارين متوازيين : مسار الحاضر في بروكسل بكل ما يحمله من حوارات مع الأصدقاء والصديقات والموظفين البلجيكيين، ومسار الماضي العراقي بصراعاته الأيديولوجية وإحباطاته السياسية (إبراهيم، ٢٠١٣، ص ٨٨).

المبحث الأول : الأفعال الكلامية في الخطاب الروائي

تنطلق نظرية الأفعال الكلامية، كما أسسها أوستن وطورها سيرل، من فكرة جوهرية مفادها أن التلفظ في حد ذاته فعل. فحين يقول المتكلم ((أعدك)) فهو لا يصف فعلا بل ينجزه، وحين يقول ((أحذرك)) فهو لا يخبر عن تحذير بل يحذر فعلا. وقد قسم أوستن الفعل الكلامي إلى ثلاثة مستويات : الفعل القولي وهو فعل التلفظ بالعبارة ذات المعنى، والفعل المتضمن في القول وهو ما يقصده المتكلم من قوله، والفعل التأثيري الناتج عن القول وهو الأثر الذي يحدثه القول في المخاطب (أوستن، ١٩٩١، ص ٢٢)وفي رواية ((لا تركضي وراء الذئاب يا عزيزتي)) تتجلى هذه المستويات الثلاثة بصور مختلفة تكشف عن عمق التوظيف اللغوي عند علي بدر، إذ تتحول الحوارات إلى ساحة تنجز فيها أفعال المقاومة، أو الخضوع، أو السخرية، أو التمرد، تبعا لموقع المتكلم وطبيعة المخاطب وسياق المقام.

المطلب الأول : الأفعال الإنجازية (الإخبار والوعد والوعيد)

تشكل الأفعال الإخبارية القاعدة الأساس للحوارات في الرواية، وهي الأفعال التي يستهدف المتكلم من ورائها تقرير حقيقة أو وصف واقعة. غير أن القوة الإنجازية لهذه الأفعال في خطاب البطل ليست محايدة، وإنما هي قوة ملتوية ترمي في غالب الأحيان إلى إعادة تشييد الذات أمام الآخر الغربي (سيرل، ١٩٨٧، ص ٨٠). فحين يصف البطل ماضيه السياسي والثقافي في العراق أمام أصدقائه البلجيكيين، فإنه لا يكتفي بالإخبار، بل ينشئ هوية بديلة يريد أن يصدقها هو قبل أن يصدقها الآخر.ومن نماذج هذا التوظيف، حديث البطل عن انتمائه العائلي للحركة الشيوعية، إذ يقول: ((كان الأمر مثل حلم بعيد، لم تكن إفريقيا، القارة السوداء، هي مجموعة الحيوانات التي لم نرها على نحو كامل تقريبا هناك في بغداد حيث ولدت ونشأت ... إنما هي أعوام طويلة من القتال والثورة ضد المصالح الغربية. هكذا نسمي الاستعمار في الوكالة)) (بدر، ٢٠١٧، ص ٤٦)في هذا المقطع، يلاحظ القارئ أن الفعل الإخباري ((هكذا نسمي الاستعمار في الوكالة)) يحمل قوة إنجازية ساخرة، فهو لا يخبر عن تسمية اصطلاحية فحسب، بل ينطوي على فعل احتجاج مضمر على الخطاب الإعلامي الغربي الذي يستبدل بالمصطلحات السياسية الصلبة مصطلحات ناعمة (المصالح الغربية بدلا من الاستعمار)، وهو ما يسميه سيرل بالفعل غير المباشر، حيث ينجز المتكلم فعلا في صيغة فعل آخر (سيرل، ١٩٨٧، ص ٣٠).أما الأفعال الإلزامية، كالوعد والقسم والتعهد، فلها حضور لافت في حوارات الرواية، خصوصا في علاقة البطل بصديقاته الأوروبيات. فهو يعد بالحب الدائم، ويقسم على الإخلاص، ويتعهد بالاستقرار، غير أن هذه الوعود تظل أفعالا متعطلة بمصطلح أوستن (أوستن، ١٩٩١، ص ١٤)، لأنها تفتقر إلى شروط النجاح : فالواعد لا يملك القدرة الفعلية على الوفاء، والمخاطب لا يثق ثقة كاملة بصدقية الوعد، والسياق المقامي – أي مقام اللاجئ في بلد إقامة مؤقتة – يقوض كل وعد منذ لحظة إنجازه.وفيما يتعلق بأفعال الوعيد والتهديد، فإنها تتخذ في الرواية شكلا مغايرا للمألوف، إذ لا تصدر عن البطل في الغالب، بل تصدر عن مؤسسات الدولة البلجيكية (دائرة الهجرة، الشرطة، البلدية)، وعن ذاكرة العراق نفسها التي تطارد البطل بأشباح الماضي. وهنا تتقاطع التداولية مع علم النفس الاجتماعي، إذ يصبح الوعيد أداة لتكريس علاقة سلطوية غير متكافئة بين

الذات الشرقية والمؤسسة الغربية (صالح، ٢٠١٢، ص ٥٨)ويمكن تلخيص أبرز الأفعال الإنجازية في الرواية وفق التصنيف السيرلي على النحو الآتي :

١ – الإخباريات : تحضر بكثافة في صورة سرد البطل لتاريخه الشخصي، وغالبا ما تكون إخباريات مفخخة تحمل قصدية مضادة لظاهر العبارة.

٢ – التوجيهيات : تحضر في خطاب الموظفين البلجيكيين تجاه البطل (يجب عليك، ينبغي أن، احضر غدا)، وتعكس بنية السلطة.

٣ – الإلزاميات : تحضر في علاقات البطل العاطفية، وهي في الغالب وعود غير قابلة للتحقق.

٤ – التعبيريات : تحضر في مقاطع المناجاة الذاتية (الحنين، الندم، الأسى)، وهي الأكثر صدقا تداوليا في الرواية.

٥ – الإعلانيات : تكاد تغيب عن خطاب البطل، لأنه يفتقر إلى السلطة المؤسسية التي تخول له إعلان أمر ما، كإعلان الزواج أو الطرد أو التعيين.

المطلب الثاني : أفعال التوجيه والأمر وعلاقات السلطة بين الآخر الغربي واللاجئ الشرقي

تعد الأفعال التوجيهية من أكثر الأفعال كشفا عن بنية السلطة في أي خطاب، إذ هي الأفعال التي يحاول بها المتكلم حمل المخاطب على القيام بفعل معين، سواء أكان ذلك بصيغة الأمر أم النصيحة أم الرجاء أم الالتماس (سيرل، ١٩٨٧، ص ١٤). وفي رواية ((لا تركضي وراء الذئاب يا عزيزتي)) تتوزع هذه الأفعال توزيعا غير متكافئ بين الذات الشرقية (البطل العراقي وأقرانه)، والآخر الغربي (الموظفون البلجيكيون، أصحاب العمل، رجال الشرطة)فالأفعال التوجيهية في الرواية تصدر بصورة شبه احتكارية عن الآخر الغربي، بينما تكتفي الذات الشرقية بالاستجابة، أو الاعتذار، أو التبرير، أو التماس العذر. وهذا التوزيع التداولي ليس بريئا، بل ينم عن نسق السلطة غير المتكافئ الذي يحكم علاقة المهاجر بالمجتمع المضيف. ويلاحظ بنشويخ في هذا السياق أن القوة التوجيهية في أي خطاب مرآة لعلاقات الهيمنة المضمرة فيه، فمن يأمر هو من يملك، ومن ينفذ هو من يخضع (بنشويخ، ٢٠١٤، ص ٩٥).ومن النماذج البارزة على هذا التفاوت التداولي، مشهد البطل في مكتب موظف اللجوء، إذ يصف لقاءه بقوله ((كانت كلمات الموظف مهذبة، لكن المقام كان يقول شيئا آخر ... كان يقول إنني مجرد عبء)) (بدر، ٢٠١٧، ص ١٥٥)في هذا المقطع، يلحظ القارئ أن التهذيب اللغوي للموظف لا يلغي القوة التوجيهية الإقصائية للخطاب، بل يغلفها بقشرة من اللطف الإجرائي. وهنا تبرز قيمة التحليل التداولي الذي يتعدى السطح اللفظي إلى ما يمكن تسميته بالسلطة المغلفة، فالأمر لا يصدر صراحة، لكنه يستشف من المقام الذي يحدد الأدوار الاجتماعية لكل من المتكلم والمخاطب (كيربرات–أوريكيوني، ١٩٩٨، ص ٢٤)وفي المقابل، حين تصدر أفعال توجيهية عن البطل العراقي، فإنها تكون موجهة في الغالب نحو ذاته في صورة مونولوج داخلي، أو نحو شخصيات شرقية مثله، أو تحمل صيغة الرجاء والالتماس لا صيغة الأمر، وهو ما يعكس هرمية تداولية صارمة، يحتل فيها الغربي قمة الهرم، بينما يقبع الشرقي في قاعدته. وقد عبر علي بدر عن هذه الهرمية في كتابه النقدي ((الرواية والمنفى)) بقوله إن اللغة في المنفى ليست أداة محايدة، وإنما هي ميدان معركة يومية بين هويات تتصارع على الاعتراف (بدر، ٢٠٠٢، ص ١٩)ومن الناحية البنيوية، يلاحظ أن أفعال التوجيه في خطاب الغربي تتميز بـ :

– الإيجاز والوضوح : باستخدام صيغ قصيرة ومباشرة نحو (املأ الاستمارة، انتظر دورك، ارجع غدا).

– التغليف بصيغ التهذيب : كصيغ (من فضلك، لو سمحت)، التي لا تلغي القوة الإلزامية للأمر.

– الاستناد إلى السلطة المؤسسية : إذ يتحدث الموظف بوصفه ممثلا للقانون لا بوصفه شخصا.

في حين تتميز التوجيهات النادرة الصادرة عن الشرقي بـ :

– الإطناب والمواربة : باستخدام صيغ التماس طويلة تكثر فيها العبارات الاعتذارية.

– صيغة الاستفهام بدلا من الأمر : (هل يمكنني أن ... ؟ هل تسمح لي بـ ... ؟).

– الاستناد إلى الحاجة الإنسانية لا إلى الحق القانوني.

المطلب الثالث : نجاح الفعل الكلامي وفشله في تفسير ظاهرة سوء الفهم بين الشخصيات

اشترط أوستن لنجاح الفعل الكلامي توافر مجموعة من شروط الملاءمة، لخصها في أربعة شروط رئيسة، هي : (أ) أن تكون ثمة إجراءات اصطلاحية مقبولة لإنجاز الفعل، (ب) وأن يكون المشاركون مؤهلين لإنجازه، (ج) وأن ينجز بشكل صحيح وكامل، (د) وأن تكون لدى المتكلم النية الفعلية لإنجازه والوفاء بمقتضياته (أوستن، ١٩٩١، ص ١٤). وحين يختل شرط من هذه الشروط، فإن الفعل الكلامي يعد فاشلا أو معطلا.

وفي رواية ((لا تركضي وراء الذئاب يا عزيزتي)) تشكل ظاهرة فشل الأفعال الكلامية سمة بنيوية لا عرضية، فالحوارات بين البطل وأصدقائه الأوروبيين كثيرا ما تنتهي إلى سوء فهم متبادل، رغم أن الأطراف يتكلمون لغة واحدة (الفرنسية أو الإنجليزية في الغالب). وسبب هذا الفشل ليس

لغويا صرفا، وإنما تداولي عميق، فالخلفيات الثقافية المختلفة، والافتراضات المسبقة المتباينة، تجعل الكلمة الواحدة تحمل دلالتين مختلفتين عند المتكلم والمخاطب (ماي، ٢٠٠١، ص ٩٢).ولعل من أبرز نماذج هذا الفشل التداولي، حوارات البطل مع صديقته البولونية، التي يصفها في إحدى لحظات المكاشفة الذاتية، إذ يلاحظ القارئ أن البطل يقول شيئا ويعني شيئا آخر، بينما تتلقى الصديقة الكلام بمعناه الحرفي، فيقع التواصل في فخ ما يمكن تسميته بـ((الفجوة التداولية)) (بنشويخ، ٢٠١٤، ص ١١٠).ويمكن في تحليل هذه الحوارات رصد ثلاثة أنماط لفشل الأفعال الكلامية :

١ – الفشل الناتج عن اختلاف الإطار الثقافي : إذ يستخدم البطل تعابير عربية مترجمة ترجمة حرفية، كتعابير المجاملة المبالغ فيها (روحي فداك، عيني عليك)، فيتلقاها الآخر إما بوصفها تصريحات حقيقية فيرتبك، وإما بوصفها مبالغات سخيفة فيستهجن.

٢ – الفشل الناتج عن اختلاف القصدية : إذ تكون نية المتكلم في واد، وفهم السامع في واد آخر. وقد حلل بنشويخ هذه الظاهرة بدقة حين قرر أن الأصل في التواصل هو التطابق بين القصد والفهم، فإذا اختل هذا التطابق انهار الفعل الكلامي (بنشويخ، ٢٠١٤، ص ١٣٢).

٣ – الفشل الناتج عن اختلاف المقام : إذ يتحدث البطل من مقام الذاكرة الشرقية، بينما تتحدث محاورته من مقام الأوروبي الحاضر المنفصل عن أي ماض مأساوي، فينعدم التقاطع الدلالي بينهما.وقد عبر علي بدر عن هذا الفشل التداولي البنيوي في صورة سردية بليغة، حين أشار إلى أن البطل يفكر بلغة، ويتكلم بأخرى، ويعيش بثالثة، وهي صياغة تكاد تختزل أزمة المنفى اللغوية برمتها. ومن هنا يبدو أن صمت البطل في كثير من المشاهد ليس عجزا لغويا، وإنما هو فعل تداولي قصدي يعكس وعيه بأن الكلام لن يصل، وأن التواصل المستحيل قد أصبح القانون الجديد لحياته في المنفى (يقطين، ١٩٩٧، ص ٩٦).وخلاصة هذا المبحث أن الأفعال الكلامية في الرواية ليست تقنيات لغوية محايدة، بل هي بنى دلالية كاشفة عن طبيعة العلاقات بين الذات والآخر، وعن مأزق التواصل الإنساني في عالم تتقاطع فيه الثقافات دون أن تلتقي. وقد أفلح علي بدر في تحويل الفعل الكلامي إلى مرآة تنعكس عليها تشققات الهوية المعاصرة، وهو ما يجعل روايته نصا تداوليا بامتياز.

المبحث الثاني : الاستلزام الحواري ومبدأ التعاون عند غرايس

يعد مبدأ التعاون الذي اقترحه الفيلسوف الأمريكي بول غرايس سنة ١٩٧٥ من أبرز إنجازات اللسانيات التداولية في القرن العشرين، إذ افترض غرايس أن الحوار البشري ينبني على تفاهم ضمني بين المتحاورين على الالتزام بأربع مقتضيات يسميها المقتضيات الحوارية، هي : مقتضى الكم (قدم من المعلومات بالقدر الذي يطلبه السياق، لا أكثر ولا أقل)، ومقتضى الكيف (قل الصدق، ولا تقل ما تفتقر إلى الدليل عليه)، ومقتضى العلاقة (تحدث في صلب الموضوع)، ومقتضى الطريقة (كن واضحا موجزا مرتبا) (غرايس، ١٩٨٩، ص ٢٦)غير أن غرايس لاحظ أن المتكلمين كثيرا ما يخرقون هذه المقتضيات عمدا، لا بقصد إفساد التواصل، وإنما بقصد توليد معنى إضافي يفهمه المخاطب من خلف المعنى الظاهر، وهو ما اصطلح عليه بالاستلزام الحواري (غرايس، ١٩٨٩، ص ٣٠). وهذا ما يجعل اللغة الإنسانية أعمق بكثير من مجرد تبادل المعلومات، إذ تنفتح على عوالم المضمر والمسكوت عنه واللاقول.ينطلق هذا المبحث من فرضية مفادها أن الحوار الروائي في ((لا تركضي وراء الذئاب يا عزيزتي)) لا يسير وفق خط مستقيم تتطابق فيه المعاني الظاهرة مع المقاصد، بل تتعمد الشخصيات خرق مقتضيات التواصل المتعارف عليها لغايات نفسية وثقافية وأيديولوجية. ومن خلال تحليل هذه الخروقات، يمكن الكشف عن الخطاب المضمر للرواية، وهو خطاب أعمق بكثير من الخطاب الظاهر.

المطلب الأول : خرق مقتضيات غرايس الحوارية ودلالاته النفسية

(أ) خرق مقتضى الكيف (الصدق) واستراتيجية النجاة

يفترض مقتضى الكيف عند غرايس أن يكون المتكلم صادقا فيما يقول، وألا يدلي بما لا دليل له عليه. بيد أن بطل الرواية وأقرانه في بروكسل يمارسون ما يمكن تسميته بـ((الكذب التداولي)) ممارسة منهجية، يقول السارد في إحدى المقاطع المكثفة: ((كان الجميع يكذب ... كنا نخترع آباء لم يولدوا، ومناصب لم نشغلها، لكي نقنع هؤلاء البلجيكيين بأننا لسنا مجرد أرقام)) (بدر، ٢٠١٧، ص ٨٨).هذا الخرق المتعمد لمقتضى الصدق ليس بغرض التضليل الأخلاقي، وإنما هو فعل إنجازي هدفه النجاة الثقافية. وتداوليا، يستلزم هذا الكذب وجود سلطة قامعة (المحقق أو الموظف البلجيكي أو ممثل الدولة) تجبر المتكلم على خلق هوية لسانية بديلة. والقصدية هنا هي إعادة الاعتبار للذات التي سحقتها رحلة المنفى (المصباح، ٢٠٠٦، ص ٧٨).ولا يتوقف الأمر عند الكذب اللفظي، بل يمتد إلى ما يسميه الرويلي بـ((الكذب البنيوي))، حيث يصبح الكذب نسقا ثقافيا كاملا، يطال طريقة اللباس، والابتسامة، وأسلوب الجلوس، وحتى نبرة الصوت (الرويلي والبازعي، ٢٠٠٢، ص ١٥٢). وهنا يلتقي التحليل التداولي بالتحليل السوسيولوجي، إذ يصبح الفعل اللساني مجرد رأس جبل الجليد الذي تخفيه بنية اجتماعية كاملة من التزييف القسري.

(ب) خرق مقتضى الكم والمناورة بالمسكوت عنه

يقضي مقتضى الكم بأن تكون مساهمة المتكلم كافية بالقدر المطلوب لأغراض الحوار، لا أكثر ولا أقل. وفي حوارات الرواية، نجد الشخصيات في الغالب تقدم معلومات أقل من اللازم (الإيجاز المخل)، أو أكثر منه (الإطناب المعطل)، هربا من استحقاقات المواجهة. فعندما يسأل البطل عن ماضيه، يلجأ إلى الإيجاز المخل إن كان السؤال يلامس جرحا سياسيا، أو إلى الإطناب في الوصف الهامشي هربا من الحقيقة المؤلمة.وهذا الخرق يستلزم حواريا وجود فجوة بين الذات وماضيها، فاللاجئ لا يريد أن يحكي حقيقته، بل يريد أن يحكي ما يتوقعه الآخر منه (إبراهيم، ٢٠١٣، ص ١١٠). وهنا تظهر ما يمكن تسميته بـ((التداولية المعكوسة))، فبدلا من أن يكيف المتكلم خطابه ليتلقاه السامع بسهولة، يكيف خطابه ليطابق صورة نمطية مسبقة عند السامع، حتى لو كانت هذه الصورة مشوهة وغير حقيقية.

(ج) خرق مقتضى العلاقة والانزياح إلى موضوع آخر

يقتضي مقتضى العلاقة أن يبقى المتحاورون داخل حدود الموضوع المتداول. وفي الرواية، يلاحظ القارئ أن البطل كثيرا ما يقفز من موضوع إلى آخر فجأة، خصوصا حين يقترب الحوار من مناطق محرمة (طائفته، مدينته الأصلية، ماضي عائلته السياسي). وهذا الانزياح ليس عشوائيا، وإنما هو استراتيجية تداولية لتحويل مسار الحوار بعيدا عن النقطة العمياء في وعي البطل (عزام، ٢٠٠١، ص ٤١).

(د) خرق مقتضى الطريقة والإغراق في الإبهام

يطلب مقتضى الطريقة من المتكلم أن يكون واضحا وموجزا ومنظما. غير أن البطل في الرواية يلجأ في كثير من الأحيان إلى الإبهام المقصود، فيستخدم عبارات فضفاضة، وضمائر غامضة، وإحالات غير محددة. وهذا الإبهام يحقق وظيفة تداولية مزدوجة، فهو من جهة يحمي البطل من الإلزام بمواقف صريحة قد يحاسب عليها، ومن جهة ثانية يفتح أمام المخاطب أفقا تأويليا واسعا يقوده إلى التعاطف أو التواطؤ مع البطل (الفاسي الفهري، ١٩٨٦، ص ١٠٢).

المطلب الثاني : المسكوت عنه والمضمر في حوارات المنفى

إذا كان الخرق المباشر لمقتضيات غرايس يولد الاستلزام الحواري، فإن ثمة طبقة أعمق من المعنى تستتر خلف المنطوق، هي طبقة المضمر. وقد ميزت كيربرات–أوريكيوني بين أنواع متعددة من المضمر : الافتراض المسبق، والاستلزام، والمسكوت عنه ثقافيا. وفي رواية علي بدر، تحضر هذه الأنواع الثلاثة بكثافة، حتى ليصح القول إن الرواية ((رواية المضمر)) قبل أن تكون رواية المنطوق (كيربرات–أوريكيوني، ١٩٩٨، ص ٦٤)فعلى مستوى الافتراض المسبق، يبني البطل خطابه على افتراضات ضمنية تتعلق بصورة العراق في وعي الآخر الأوروبي : العراق المنكوب، العراق الديكتاتوري، العراق المعتدى عليه. وحين تنهار هذه الافتراضات في وعي المخاطب الذي قد لا يعرف عن العراق شيئا، ينهار معها التواصل كله. وعلى مستوى المسكوت عنه ثقافيا، نجد أن البطل حين يسأل عن طائفته، أو عن موقفه من الاحتلال، يلجأ إلى الصمت أو إلى إجابات مراوغة. وهنا يتحول الصمت ذاته إلى فعل تداولي، فهو ليس غيابا للقول، وإنما هو قول بطريقة أخرى. ويلاحظ ماي في هذا الصدد أن الصمت في التداولية ليس عدما، بل هو خيار قصدي يحمل دلالة لا تقل قوة عن دلالة الكلام (ماي، ٢٠٠١، ص ١٩٥)ومن المضمرات اللافتة في الرواية أيضا ما يتصل بالمضمر الثقافي، فالبطل حين يخاطب صديقته الأوروبية يفترض ضمنا أنها تعرف ما يعرفه عن الشرق، وأنها تحمل التصورات نفسها سلبا أو إيجابا. وهذا الافتراض المسبق كثيرا ما يخيب، فيقع البطل في إحراجات تواصلية متكررة، يصف أحدها السارد قائلا ((قلت مرة لصديقتي البولونية : إن الأمر أعقد من أن يفهم في جلسة واحدة، فقالت : لكنك لم تحاول أصلا أن تشرحه. قلت : لأني لا أعرف من أين أبدأ. قالت : ابدأ من أي مكان. قلت : المشكلة أنه لا توجد بداية ولا نهاية ... هي حلقة مفرغة من الألم)) (بدر، ٢٠١٧، ص ١٧٨).في هذا الحوار، تتداخل عدة خروقات لمقتضيات غرايس في آن واحد، كما يحضر المضمر الوجودي الذي يعكس عجز البطل عن ترجمة تجربته الشرقية إلى لغة يفهمها العقل الأوروبي. إنه عجز تداولي قبل أن يكون عجزا معرفيا، لأنه يكشف عن استحالة بنيوية في نقل تجربة كاملة إلى وعي مختلف (إبراهيم، ٢٠١٣، ص ١٤٢).

المطلب الثالث : السخرية والتهكم بوصفهما فعلا تداوليا احتجاجيا

تعد السخرية من أبرز تجليات خرق مقتضيات التواصل، إذ هي – بالتعريف التداولي – قول شيء وقصد عكسه (سبيربر وويلسون، ١٩٩٥، ص ٢٤٠). وقد عالجها سبيربر وويلسون في إطار نظرية الملاءمة بوصفها نوعا من التلفظ المسند، حيث يتلفظ المتكلم بقول لا يتبناه، بل ينسبه إلى آخر يريد التهكم عليه.وفي رواية ((لا تركضي وراء الذئاب يا عزيزتي)) تشكل السخرية والتهكم نسيجا أسلوبيا متماسكا يخترق صفحات الرواية كلها تقريبا، ويتخذ ثلاثة اتجاهات رئيسة :

– الاتجاه الأول : السخرية من الذات الشرقية المهاجرة، بكل أوهامها وادعاءاتها وتبجحها بماض ثوري لم يعد له وجود.

– الاتجاه الثاني : السخرية من الآخر الغربي، بكل ادعاءاته الإنسانية والديمقراطية، التي تتحول في الواقع إلى بيروقراطية باردة وعنصرية مغلقة.

– الاتجاه الثالث : السخرية من اللغة نفسها، بوصفها أداة فقدت قدرتها على التواصل الحقيقي.

ومن أبرز نماذج السخرية في الرواية، قول البطل في مقطع كثيرا ما اقتبس في الدراسات النقدية ((نحن هنا في فردوس الحرية، حيث يحق لك أن تقول كل شيء، بشرط ألا يسمعك أحد)) (بدر، ٢٠١٧، ص ١١٢)هنا نجد خرقا مزدوجا لمقتضى العلاقة ومقتضى الطريقة. فالكلام في ظاهره مدح للحرية، لكنه تداوليا يحمل استلزاما حواريا مفاده أن الحرية في المنفى هي حرية الصراخ في الفراغ، أي حرية لا قيمة لها لأنها بلا مستمع. والسخرية هنا تعمل بوصفها آلية دفاعية تداولية تحمي البطل من الانهيار التام أمام واقع التهميش، كما تشكل احتجاجا مضمرا على الادعاءات الكبرى للحضارة الغربية (الشخاترة، ٢٠١١، ص ٦٤).ومن النماذج اللافتة أيضا، عنوان الرواية ذاته ((لا تركضي وراء الذئاب يا عزيزتي))، فالعبارة في ظاهرها نصيحة عاشق لمحبوبته، لكنها تداوليا تحمل قوة إنجازية تحذيرية من نوع خاص. التحذير ليس موجها لفعل مادي (الركض)، وإنما هو استعارة تداولية تحذر من الانجراف وراء الأوهام التي يسوقها الغرب، أو الأوهام التي نصنعها عن أنفسنا. والذئاب تداوليا هي الأنساق الثقافية المفترسة التي تلتهم هوية المهاجر دون أن يشعر (النصير، ٢٠١٠، ص ٤٤).والملاحظ أن السخرية عند علي بدر ليست سخرية سهلة تكتفي بالضحك على المظاهر، وإنما هي سخرية فلسفية تذهب إلى جذور المأساة. وهنا يلتقي بدر بتقاليد السخرية في الأدب العالمي، من سرفانتس إلى فولتير إلى ميلان كونديرا، حيث تصبح السخرية أداة معرفية لكشف زيف الخطاب الكبير (نجمي، ٢٠٠٠، ص ٥٥).وخلاصة هذا المبحث، أن الاستلزام الحواري في رواية علي بدر ليس أداة لسانية محايدة، بل هو بنية احتجاجية متكاملة تكشف عن العجز التداولي للذات المهاجرة، وعن الفجوة الثقافية التي تفصل بين عالمين، وعن استحالة التواصل الكامل بين الثقافات. وتتحول اللغة في الرواية، عبر هذه الخروقات المتواصلة، إلى مرآة محطمة تعكس تشوهات الواقع بدلا من أن تعكس صورته الكاملة.

المبحث الثالث : السياق الإشاري والمقامي

تعد الإشاريات من أهم المباحث التداولية وأكثرها كشفا عن طبيعة العلاقة بين اللغة والسياق. والكلمة مأخوذة من الأصل اليوناني، ومعناها الإشارة أو الإيماء، وتدل على تلك الكلمات التي لا يمكن تحديد مرجعها إلا بمعرفة سياق التلفظ، كالضمائر، وأسماء الإشارة، وظروف الزمان والمكان (لاينز، ١٩٧٧، ص ٦٣٧). ويصنف ليفنسون الإشاريات إلى خمسة أنواع رئيسة : شخصية (الضمائر)، ومكانية (هنا، هناك)، وزمانية (الآن، أمس)، واجتماعية (تعابير المخاطبة)، وخطابية (الإحالة إلى أجزاء سابقة من النص) (ليفنسون، ١٩٨٣، ص ٦٢).

وفي رواية علي بدر، تعمل الإشاريات بوصفها مؤشرات تداولية على التمزق الهوياتي الذي يعيشه البطل في فضاء بروكسل. فبدلا من أن تكون الإشاريات أدوات لتثبيت موقع المتكلم في الزمان والمكان والمجتمع، تصبح في خطاب البطل أدوات للكشف عن الزحزحة الوجودية التي يعيشها بين عالمين، وذاتين، وزمنين.

المطلب الأول : إشاريات الزمان والمكان وجدلية ((هنا)) بروكسل و((هناك)) بغداد

في الرواية، يبرز صراع حاد بين ظرفي المكان ((هنا)) (بروكسل) و((هناك)) (بغداد). وتداوليا، لا يشير هذان الظرفان إلى جغرافيا مجردة، وإنما إلى فضاءات نفسية تحمل شحنات وجدانية متباينة. يقول البطل في إحدى لحظات المكاشفة الذاتية : ((أنا هنا جسديا، لكن ((هنا)) الخاصة بي لا تزال عالقة في ((هناك))) (بدر، ٢٠١٧، ص ١٤٢)في هذا التلفظ، يلاحظ القارئ انزياحا جوهريا في الوظيفة الإشارية لظرف المكان ((هنا))، فالظرف الذي يفترض أن يشير إلى موقع المتكلم اللحظي القريب، أصبح يشير إلى الاغتراب نفسه، بينما ((هناك)) التي يفترض أن تشير إلى المكان البعيد، أصبحت هي المركز النفسي والوجداني للمتكلم. وهذا الاضطراب الإشاري يعكس تداوليا فشل البطل في التمكين المقامي، أي فشله في أن يجعل من المكان الجديد مرجعا لذاته (باشلار، ١٩٨٤، ص ٣١)ويذهب غاستون باشلار في كتابه ((جماليات المكان)) إلى أن المكان ليس وعاء محايدا للأحداث، وإنما هو بنية حية تتفاعل مع الذات وتعيد تشكيلها (باشلار، ١٩٨٤، ص ٣٨). وفي حال البطل العراقي، يجد القارئ أن المكان ((هنا)) (بروكسل) يفشل في أن يصبح بنية حية بالنسبة إليه، بينما يظل المكان ((هناك)) (بغداد) محتفظا بكل حيويته الرمزية والوجدانية، رغم البعد الجسدي عنه.أما فيما يتعلق بإشاريات الزمان، فإنها تشهد بدورها انزياحات تداولية لافتة. فالبطل يستخدم ((الآن)) للإشارة إلى لحظة المنفى، لكن هذه ((الآن)) تكاد تكون فارغة من المحتوى الوجودي. في المقابل، يستخدم ((أمس)) و((قديما)) للإشارة إلى زمن العراق، وهي إشاريات تأتي مشحونة بالدلالة والكثافة. ومن النماذج البارزة على ذلك، قول البطل في موضع آخر من الرواية : ((الزمن هنا يمر دون أن يحدث شيء، أما هناك فكان يحدث كل شيء دون أن يمر الزمن)) (بدر، ٢٠١٧، ص ٣٣).في هذا التلفظ، يقدم علي بدر مفارقة تداولية بليغة، حيث ينقلب الزمن من مفهوم فيزيائي إلى مفهوم تداولي محض، يقاس بكثافة الأحداث الوجدانية لا بعدد الساعات والأيام. وهذه المفارقة هي التي تربك النظام الإشاري للبطل، فيظل يعيش في زمنين متوازيين لا يلتقيان.ويشير ياسين النصير في كتابه ((الرواية والمكان)) إلى أن المكان في الرواية

العراقية المعاصرة لم يعد جغرافيا، وإنما صار حقلا دلاليا متشظيا يعكس تشظي الذات نفسها (النصير، ٢٠١٠، ص ٨٨). وهو ما ينطبق تماما على ما نجده في رواية ((لا تركضي وراء الذئاب يا عزيزتي))، حيث يتداخل المكان البلجيكي بالمكان العراقي في طوبوغرافيا نفسية معقدة، تجعل من ((هنا)) و((هناك)) قطبين دلاليين دائمي الجذب والتنافر.

المطلب الثاني : الشخصنة الإشارية تحليل الضمائر (الأنا، الآخر، نحن)

تتمحور تداولية الرواية حول بناء الذات في مقابل الآخر، ويستخدم علي بدر الضمائر الإشارية بمهارة فائقة لتكريس المسافة الثقافية والوجدانية بين هذين القطبين. ويمكن رصد ثلاثة استخدامات تداولية رئيسة للضمائر في الرواية :

الاستخدام الأول : ضمير ((نحن)) الجماعي

يحضر هذا الضمير في خطاب المهاجرين العراقيين والعرب في بروكسل، ويعبر عن جماعة الضحايا أو المهمشين الذين يجمعهم مصير مشترك. ومن النماذج اللافتة على ذلك قول السارد : ((كنا جميعا نشترك في شيء واحد : أننا لسنا من هنا، ولن نصبح من هنا، حتى لو حصلنا على الجنسية)) (بدر، ٢٠١٧، ص ٩٨).في هذا التلفظ، يتحول الضمير ((نحن)) إلى إشارة هوياتية جماعية، تحدد المتكلم بانتمائه إلى جماعة المنفيين، لا بانتمائه إلى وطن أو إلى دولة. وهذا الاستخدام التداولي يكشف عن هوية بديلة تتشكل في فضاء المنفى، هوية مرتكزها المصير المشترك لا الأصل المشترك (إبراهيم، ٢٠١٣، ص ١٦٧).

الاستخدام الثاني : ضمير ((هم)) الإقصائي

يشير هذا الضمير في الرواية إلى البلجيكيين أو الغربيين بشكل عام، وهو يحمل تداوليا معنى الانفصال وعدم القدرة على الاختراق. فالبطل يقول ((هم يفعلون كذا)) و((هم يفكرون بطريقة كذا))، وكأنه يصف كائنات من كوكب آخر. وهذا الاستخدام للضمير ليس بريئا، بل يكشف عن جدار تداولي يفصل بين عالمي ((نحن)) و((هم))، جدار لا تستطيع اللغة اختراقه مهما حاول البطل.

الاستخدام الثالث : ضمير ((أنا)) المتشظي

يعاني الضمير ((أنا)) في الرواية من تشظ تداولي حاد، فالبطل يستخدم ((أنا)) مخادعة في المقابلات الرسمية مع موظفي الهجرة، و((أنا)) مهذبة في الحوارات الاجتماعية مع الأصدقاء البلجيكيين، و((أنا)) منكسرة في مناجاته الذاتية حين يخلو إلى نفسه. وهذا التعدد في استخدام الضمير يعكس تعدد الذوات داخل الشخصية الواحدة في المنفى، وهو ما يسميه علماء النفس الاجتماعي بـ((الذوات المنشطرة)) (صالح، ٢٠١٢، ص ١٠٥)ومن النماذج البارزة على هذا التشظي، قول البطل في مونولوج داخلي :

((لم أعد أعرف من ((أنا)) التي تتكلم : هل هي ((أنا)) العراقي الذي ولدت به، أم ((أنا)) البلجيكي الذي صرت إليه، أم ((أنا)) الثالث الذي لا يشبه أحدا منهما ؟)) (بدر، ٢٠١٧، ص ١٢٥)في هذا التلفظ، نشهد ما يمكن تسميته بـ((أزمة الإشارية الذاتية))، فالضمير الذي يفترض أن يكون أكثر الإشاريات استقرارا (لأنه يحيل دائما إلى المتكلم اللحظي) يصبح هو الإشارية الأكثر اضطرابا. ويرى عبد الله إبراهيم أن هذا التشظي في الضمير الأول هو السمة الأبرز للرواية العربية الجديدة في زمن العولمة، وهو ما يجعل رواية علي بدر نموذجا تطبيقيا ممتازا لهذه الظاهرة (إبراهيم، ٢٠١٣، ص ١٧٥).

المطلب الثالث : أثر السياق المقامي في توجيه دلالة النص

المقام في التداولية هو مجموع الظروف الاجتماعية والثقافية والنفسية المحيطة بالحدث الكلامي، وهو ما يميزه عن السياق الذي يقتصر في الغالب على المعطيات اللغوية المحيطة بالقول. وقد ميز اللسانيون العرب القدماء بين مقتضى الظاهر ومقتضى الحال، وهي تفرقة سابقة بقرون لما توصل إليه التداوليون الغربيون (عبد الرحمن، ١٩٩٨، ص ٩٥).وفي رواية ((لا تركضي وراء الذئاب يا عزيزتي))، يضطلع المقام بدور حاسم في توجيه دلالة الأقوال، بل في قلبها أحيانا إلى عكس معناها الظاهر. فالكلمة الواحدة تتغير دلالتها بحسب المقام الذي قيلت فيه، والابتسامة الواحدة تحمل معنى مختلفا بحسب من يبتسمها وأمام من، والصمت الواحد يكون احتجاجا في موضع وموافقة في آخر.ومن النماذج اللافتة على دور المقام في توجيه الدلالة، مشهد لقاء البطل بموظف اللجوء المشار إليه سابقا، حيث قال ((كانت كلمات الموظف مهذبة، لكن المقام كان يقول شيئا آخر ... كان يقول إنني مجرد عبء)) (بدر، ٢٠١٧، ص ١٥٥).هنا يبرز دور السياق المقامي في إلغاء المعنى الحرفي للكلام، فالفعل الكلامي (الترحيب المهذب) فقد قوته الإنجازية الإيجابية بسبب عدم التكافؤ في السلطة بين المتكلم والسامع. وتداوليا، فالمقام هنا هو الذي يمنح القول معناه الحقيقي بوصفه فعلا إقصائيا مغلفا بالتهذيب. وتلاحظ كيربرات–أوريكيوني أن المقام في كثير من الأحيان أبلغ من النص، لأنه يكشف ما يخفيه النص (كيربرات–أوريكيوني، ١٩٩٨، ص ٨٨).ويمكن رصد ثلاثة مستويات للسياق المقامي في الرواية :

– المستوى الأول : المقام الاجتماعي، ويتحدد بطبيعة العلاقات بين الشخصيات (موظف – لاجئ، صاحب عمل – عامل، طبيب – مريض، مواطن – أجنبي). وهذا المستوى يحدد بروتوكول الكلام وحدوده.

– المستوى الثاني : المقام الثقافي، ويتحدد بالخلفيات الثقافية للمتحاورين (شرقي – غربي، مسلم – علماني، يساري – ليبرالي). وهذا المستوى يحدد الافتراضات المسبقة التي يبنى عليها الفهم.

– المستوى الثالث : المقام النفسي، ويتحدد بالحالة الوجدانية للشخصيات (الحنين، الإحباط، الفرح، الاكتئاب). وهذا المستوى يحدد النبرة التي يلقى بها الكلام، وتتحدد بناء عليه قوة الفعل الإنجازي.ومن النماذج البليغة على تأثير المقام النفسي في توجيه الدلالة، حوارات البطل مع نفسه في لحظات الوحدة الليلية، حيث تتحول الكلمات نفسها التي يستخدمها مع الناس في النهار إلى كلمات مغايرة تماما في معناها التداولي. فعبارة ((أنا بخير)) التي يقولها للموظف تحمل معنى ((أنا أتظاهر بأني بخير لأمر علي به))، بينما العبارة نفسها حين يقولها لنفسه أمام المرآة تحمل معنى ((أنا منهار وأحاول أن أقنع نفسي بعكس ذلك)) (الجامعة المستنصرية، ٢٠١٩، ص ١١٠).ومن المظاهر اللافتة في الرواية، توظيف علي بدر للإشاريات الاجتماعية، وبخاصة في تعابير المخاطبة. فالبطل يلاحظ كيف ينتقل من كونه أستاذا في بغداد إلى كونه المسيو المجهول الهوية في بروكسل. ويلاحظ كذلك كيف يستخدم البلجيكيون اسمه الأول مباشرة، بينما كان في العراق ينادى بألقاب الاحترام. وهذه الانزياحات في الإشارة الاجتماعية تكشف عن انزياح أعمق في الموقع الاجتماعي للبطل، الذي فقد مع المنفى رأس ماله الرمزي ومكانته السابقة (الفاسي الفهري، ١٩٨٦، ص ١١٢).ولا يفوتنا أن نشير إلى توظيف علي بدر للإشاريات الخطابية، أي تلك الإشارات التي يحيل بها النص إلى نفسه، كقوله : (كما ذكرت سابقا)، أو (سأعود إلى هذه النقطة لاحقا). وهذه الإشاريات تخلق في الرواية ما يمكن تسميته بـ((السرد الواعي بذاته))، حيث يدرك البطل أنه يحكي قصته، وأنه مسؤول عن صياغتها، وأن المتلقي شريك في صنعها. وهذا الوعي السردي هو في جوهره وعي تداولي يضع المتكلم والمخاطب في علاقة تفاوضية حول المعنى، لا في علاقة إرسال أحادي (يقطين، ١٩٩٧، ص ٩٦)وخلاصة هذا المبحث، أن الإشاريات في رواية ((لا تركضي وراء الذئاب يا عزيزتي)) ليست مجرد أدوات لغوية للإحالة، بل هي بنى دلالية كاشفة عن أزمة الذات المهاجرة. فالاضطراب في إشاريات الزمان والمكان يعكس اضطراب الذات في علاقتها بالعالم، وتشظي الضمائر يعكس تشظي الذات في علاقتها بنفسها، وانزياح المقامات يعكس انزياح الذات عن مرجعياتها التقليدية. وبهذا تتحول الإشاريات من ظاهرة لسانية إلى مرآة وجودية تعكس مأزق الإنسان المعاصر في عالم سائل لا تستقر فيه إحالة على مرجع ثابت.

الخاتمة والنتائج

بعد هذه الرحلة التحليلية في رواية ((لا تركضي وراء الذئاب يا عزيزتي)) للروائي العراقي علي بدر، عبر اللسانيات التداولية، يمكن الخروج بجملة من النتائج، يتلخص أبرزها فيما يلي :

١ – اللغة فعل لا وصف : أثبتت الدراسة أن اللغة في الرواية ليست وسيلة تواصل بريئة أو محايدة، وإنما هي مجموعة من الأفعال الكلامية (توجيهية، إخبارية، إلزامية، تعبيرية، إعلانية) ترمي إلى ممارسة السلطة، أو المقاومة النفسية، أو إنشاء هويات بديلة في فضاء المنفى. وقد أفلح علي بدر في تحويل الفعل الكلامي إلى مرآة تنعكس عليها تشققات الهوية المعاصرة.

٢ – الفعل الكلامي الفاشل بنية مهيمنة : كشفت الدراسة أن فشل الأفعال الكلامية يشكل سمة بنيوية للحوارات في الرواية، وأن هذا الفشل ناتج عن اختلاف الأطر الثقافية، وتباين القصديات، وتعارض المقامات بين البطل العراقي والآخر الغربي.

٣ – التوزيع غير المتكافئ للأفعال التوجيهية : بينت الدراسة أن الأفعال التوجيهية (الأمر، النهي، التعليمات) تصدر بصورة شبه احتكارية عن الآخر الغربي (الموظفين، رجال الشرطة، أصحاب العمل)، بينما تكتفي الذات الشرقية بالاستجابة والاعتذار والتبرير. وهذا التوزيع التداولي يعكس نسق السلطة غير المتكافئ بين المهاجر والمجتمع المضيف.

٤ – خرق ممنهج لمقتضيات غرايس : كشفت الدراسة عن خرق ممنهج لمقتضيات التعاون الحوارية الأربع (الكم، الكيف، العلاقة، الطريقة)، خصوصا مقتضى الصدق، حيث تحول الكذب التداولي في الرواية من رذيلة أخلاقية إلى ضرورة وجودية للنجاة الثقافية، ولبناء هوية متخيلة تتقبلها الذات الغربية المضيفة.

٥ – هيمنة المضمر والمسكوت عنه : أثبتت الدراسة أن المضمر يحتل مساحة هائلة من الخطاب في الرواية، تكاد تفوق مساحة المنطوق. وتتنوع المضمرات بين المضمر السياسي (الإحالات إلى تواريخ العراق المؤلمة)، والمضمر الثقافي (الافتراضات المسبقة عن الشرق والغرب)، والمضمر النفسي (المشاعر المكبوتة التي لا يستطيع البطل البوح بها صراحة).

٦ – السخرية بوصفها احتجاجا تداوليا : كشفت الدراسة أن السخرية والتهكم في الرواية ليسا مجرد أسلوب فني، وإنما هما استراتيجية تداولية متعددة الأبعاد، تحقق وظائف ثلاثا، هي : الدفاع النفسي عن الذات، والاحتجاج على الآخر، والكشف عن زيف الخطابات الكبرى (الحرية، الديمقراطية، الإنسانية).

٧ – تشظي الإشاريات : عكست الإشاريات المكانية والزمانية والشخصية أزمة الانتماء العميقة لدى الشخصية المهاجرة. فلم تعد ((هنا)) تعني الاستقرار، ولم تعد ((الأنا)) تعني الوحدة والانسجام، ولم تعد ((الآن)) تعني الحضور الفاعل في اللحظة. بل أصبحت كل هذه الإشاريات أدوات للكشف عن الزحزحة الوجودية التي يعيشها البطل بين عالمين وذاتين وزمنين.

٨ – المقام أبلغ من النص : أكدت الدراسة أهمية المقام في توجيه دلالة النص، حيث تبين أن الكلمات نفسها يمكن أن تحمل معاني متناقضة بحسب المقام الذي قيلت فيه. وهذا ما يدعو إلى تجاوز القراءات السطحية للنصوص الروائية، والذهاب إلى عمق السياقات الثقافية والاجتماعية والنفسية التي تحدد دلالاتها الحقيقية.

٩ – الرواية سردية للإخفاق التداولي : تكاد رواية ((لا تركضي وراء الذئاب يا عزيزتي)) في جوهرها أن تكون سردية للإخفاق التداولي، حيث تظل المقاصد الحقيقية للشخصيات حبيسة المضمر والمسكوت عنه، مما يعمق الفجوة بين الشرق والغرب، ويحول كل لقاء حواري إلى مناسبة لتأكيد الاغتراب، لا لتجاوزه.

١٠ – التداولية أداة كاشفة لأدب المنفى : أثبتت هذه الدراسة جدوى المنهج التداولي بوصفه أداة منهجية ممتازة لقراءة أدب المنفى العربي المعاصر، إذ هو الأقدر على رصد ما لا ترصده المناهج البنيوية أو الموضوعاتية من تشققات الذات وتمزقات اللغة في عالم تتقاطع فيه الثقافات دون أن تلتقي.

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر والمراجع العربية

- إبراهيم، عبد الله. (٢٠١٣). المتخيل السردي: أدوات التحليل وطرق التلقي. بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- أرمينكو، فرانسواز. (١٩٨٦). المقاربة التداولية (سعيد علوش، مترجم). بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- أوستن، جون. (١٩٩١). كيف ننجز الأشياء بالكلمات (عبد القادر قنيني، مترجم). الدار البيضاء : إفريقيا الشرق.
- باشلار، غاستون. (١٩٨٤). جماليات المكان (غالب هلسا، مترجم). بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- بدر، علي. (٢٠٠٢). الرواية والمنفى. بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة.
- بدر، علي. (٢٠١٧). لا تركضي وراء الذئاب يا عزيزتي (الطبعة الأولى). بيروت : دار الرافدين.
- بلانشيه، فيليب. (٢٠٠٧). التداولية : من أوستن إلى غوفمان (صابر الحباشة، مترجم). دمشق : دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع.
- بنشويخ، رشيد. (٢٠١٤). التداولية وتحليل الخطاب الأدبي. عمان : دار غيداء للنشر والتوزيع.
- الجامعة المستنصرية. (٢٠١٩). الأفعال الكلامية في الرواية العراقية المعاصرة [رسالة ماجستير غير منشورة]. كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، بغداد.
- الجبوري، ميثم. (٢٠١٨). تمثلات الذات والآخر في رواية ((لا تركضي وراء الذئاب يا عزيزتي)). مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، ٢٦(٤)، ٢١٥–٢٣٨.
- خليل، إبراهيم. (٢٠١٠). بنية الحوار في رواية علي بدر. مجلة أفكار الأردنية، (٢٥٨)، ٤٧–٦٢.
- دراج، فيصل. (٢٠٠٤). الرواية وتأويل التاريخ : نظرية الرواية والرواية العربية. الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي.
- الرويلي، ميجان، والبازعي، سعد. (٢٠٠٢). دليل الناقد الأدبي (الطبعة الثالثة). الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي.
- سيرل، جون. (١٩٨٧). الأفعال الكلامية : دراسة في فلسفة اللغة (معتمد علي، مترجم). القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية.
- صالح، قاسم حسين. (٢٠١٢). سيكولوجية الإنسان العراقي المهاجر. بيروت : دار الرافدين.
- صحراوي، مسعود. (٢٠٠٥). التداولية عند العلماء العرب : دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي. بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر.
- الشخاترة، محمد. (٢٠١١). تداخل الأجناس الأدبية في الرواية العربية المعاصرة. عمان : دار الحامد للنشر والتوزيع.

- عبد الرحمن، طه. (١٩٩٨). في أصول الحوار وتجديد علم الكلام. الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي.
- عزام، محمد. (٢٠٠١). النص الغائب : تجليات التناص في السرد العربي. دمشق : منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- علوش، سعيد. (١٩٨٥). معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة. بيروت : دار الكتاب اللبناني.
- عمر، أحمد مختار. (١٩٩٨). علم الدلالة (الطبعة الخامسة). القاهرة : عالم الكتب.
- العيدي، محمد. (٢٠١٥). تحولات الخطاب الروائي عند علي بدر. بغداد : منشورات ضفاف.
- الفاسي الفهري، عبد القادر. (١٩٨٦). اللسانيات واللغة العربية : نماذج تركيبية ودلالية. الدار البيضاء : دار توبقال للنشر.
- كيربرات–أوريكيوني، كاترين. (١٩٩٨). المضمر (ريتا خاطر، مترجمة). بيروت : المنظمة العربية للترجمة.
- المتوكل، أحمد. (١٩٨٥). الوظيفة والبنية : مقاربة وظيفية لبعض قضايا القواعد العربية. الرباط : منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
- المصباح، خليفة. (٢٠٠٦). التداولية في تحليل الخطاب. بنغازي : دار الكتب الوطنية.
- نجمي، حسن. (٢٠٠٠). شعرية الفضاء : المتخيل والهوية في الرواية العربية. الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي.
- نحلة، محمود أحمد. (٢٠٠٢). آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر. الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية.
- النصير، ياسين. (٢٠١٠). الرواية والمكان : دراسات في الفضاء الروائي. بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة.
- يقطين، سعيد. (١٩٩٧). الرواية والتحول السردي : آفاق التجريب. بيروت : المركز الثقافي العربي.
- يول، جورج. (٢٠١٧). التداولية (قصي العتابي، مترجم). الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي.

ثانيا : المراجع الأجنبية

- Austin, J. L. (1962). How to do things with words. Oxford: Clarendon Press.
- Grice, H. P. (1989). Studies in the way of words. Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Levinson, S. C. (1983). Pragmatics. Cambridge: Cambridge University Press.
- Lyons, J. (1977). Semantics (Vol. 2). Cambridge: Cambridge University Press.
- Mey, J. L. (2001). Pragmatics: An introduction (2nd ed.). Oxford: Blackwell Publishing.
- Searle, J. R. (1979). Expression and meaning: Studies in the theory of speech acts. Cambridge: Cambridge University Press.
- Sperber, D., & Wilson, D. (1995). Relevance: Communication and cognition (2nd ed.). Oxford: Blackwell.
- Yule, G. (2010). Pragmatics. Oxford: Oxford University Press.